*ما يتفرَّع عن أساليب البدل*

*بحث في النحو*

*إعداد/ عادل محمد فتحي*

*قسم اللغة العربية*

*كلية العلوم الاسلامية – جامعة المدينة العالمية*

شاه علم - ماليزيا

*adel.mater@mediu.edu.my*

خلاصة—هذا البحث يبحث في ما يتفرَّع عن أساليب البدل.

*الكلمات المفتاحية: البدل، الأساليب، الفصاحة.*

# ***المقدمة***

معرفة أسس ما يتفرَّع عن أساليب البدل، يقول سيبويه رابطًا بين أصل الباء -وهو البدل- وبين ما تعرف عنه من أساليب: وإن شئت قلتَ: ضرب عبد الله ظهرُه، ومطر قومُك سهلُهم، على قولك: رأيتُ القومَ أكثرهم.

يعني سيبويه بهذه العبارة: أن في اللغة اتساعًا، وأنك تقول: ضرب عبد الله ظهرُه، برفع ظهره عن البدل، ثم يربط بين ما ذكره الآن وما ذكره في صدر الباب بالمثال الذي كاد يكون يصح دخول أن على خبر كان كما ورد في الحديث: ((كادت الحاجة أن تكون كفرًا)) يقول: رأيت القوم أكثرَهم، يكاد هذا المثل يكون علمًا على الأمثلة في باب البدل، على قولك -يعني: على نحو قولك-: رأيتُ القومَ أكثرهم، ورأيت عمرًا شخصه رأى: فعل ماض، والتاء: فاعل، وعمرًا: مفعول به منصوب، وشخصه: بدل منصوب.

1. *المقالة*

لقد قال سيبويه: وزعم الخليل -رحمه الله- أنهم يقولون: مُطرنا الزرعَ والضرعَ، إن شئت رفعت على البدل، وقال ذلك بعد أن ذكر الزرع والضرع منصوبتين، ومعنى ذلك: أنه على الحذف والإيصال أو على نزع الخافض.

الحق أن الجرمي خطأ سيبويه، والسبب هو أنه لم يقف طويلًا عند هذه المسألة، يعني: إذا قلنا: دخلتُ الدار، إن أصله: دخلت في الدار، وقال الجرمي: دخلت الدار.

دخلت في الدار هو الأصل؛ لقولك: دخلت الدار، فلَمَّا حذفتَ فيه انتصبت الدار إذا قلت: دخلت الدار، ومعنى قولك: عند سيبويه والناس، دخلت البيت معناه: دخلت في البيت، وكما ذكرت لكم من قول ابن مالك: ويقاس على ذلك: دخلت المسجد، أي: دخلت في المسجد، فحذفت "في" فانتصب المسجد، فصار مسجدًا.

ويقول الجرمي: يتعدى الفعل بنفسه تارة، ويتعدى بواسطة حرف الجر تارة أخرى، قال: وقد حكم على سيبويه بالغلط، ونحن إذا أردنا أن نحقق هذه المسألة، قلنا: عفا الله عن الجرمي، فليس لتخطئته سيبويه من وجه؛ لأن الأصل الأصيل أن نقول: دخلت في الدار، والدخول إيلاج، والدخول في الدار هو الأصل، ودخلت الدار كذلك، ثم إن الاستقراء يدل على أن الفعل منه قاصر، ومنه متعدٍّ، والمتعدي يتعدى بنفسه ويتعدى بالحرف، وقد يختلف الحرف، وقد يتعدى الفعل إلى مفعولين؛ أحدهما: بما يتعدى إليه بنفسه، والآخر: يتعدى إليه بواسطة حرف الجر، وفي القرآن: {ﯛ ﯜ ﯝ} [الأعراف: 155] أي: اختار موسى من قومه سبعين رجلًا، وقد قال الشاعر من البسيط:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| استغفر الله ذنبًا لست محصيه | \* | رب العباد إليه الوجه والعمل |

فقال: "أستغفر الله ذنبًا" والأصل: أستغفر الله من ذنب، وهكذا.

المسألة أن قضية حذف حرف الجر كما قلت لك كما ورد في قول جرير:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| تمرون الديار ولم تعوجوا | \* | كلامكم إذن عليَّ حرام |

الأصل: تمرون بالديار، و{ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ}[الصافات: 137، 138] إذن القرآن الكريم واللغة العالية في الفصاحة تشهد بأن الفعل يتعدى بحرف، ويتعدى بنفسه، وأن حذف حرف الجر يجوز في الأماكن كما قال سيبويه ونقل عن الخليل، وَوَجَّهَ الأساليب، وليس من قبيل الغلط، أما التوسع في أن نقول: إن الفعل يتعدى لنفسه تارة ويتعدى لغيره تارة أخرى، فهذا مما فر منه القدماء والمحدثون، وقد رأينا ابن مالك وهو يرد على ذلك، وقد رأينا سيبويه نفسه وهو يرد على ذلك، ويقول: إلا أن تسمع العرب تقول، وهو قد منع: ضُرب زيد اليدَ والرجلَ، مع أن فيها من الشبه بقوله: قلب ظهره أي: ضرب ظهره، على معنى: ضرب على ظهره، فما الفرق بين الظهر وبين الرجل، إلا أنَّ سيبويه نقل المسموع الذي ليس فيه كلام، وإلا لكان الأمر مقيسًا عليه.

ولذلك -رحم الله- ابن مالك كما قال في (شرح التسهيل): إذا ورد منه ما كثر، قبل وقيس عليه، وإذا ورد منه ما قل، قبل، أي: حفظ، ولكن لم يقس عليه، أو بعبارة الجهابذة المحدثين حماة الحما الذين يقولون: إنَّ هذا أمر يفسد اللغة، على عكس ما ترونه عند غيرهم الذين ينادون بتطور اللغة، فيفسدون كل قاعدة تحت باب التطور، كأن التطور خروج ومروق كما يخرج السهم من كنانته أو من الرمي، كأن التطور آياته أن تكسر القواعد، وهذا عبث، وليس من باب العلم لا من قريب ولا من بعيد.

الأمر إذن ليس كما قال الجرمي؛ لأنَّ كلام الجرمي يدل على كل ما تراه حذف منه حرف الجر، تقول: صحيح وقد تعدى الفعل بنفسه، وتراه مع الحرف تقول: صحيح وقد تعدى الفعل بالحرف، فلا داعي إذن إلى كتاب، ولا إلى (المقتضب) ولا إلى أي كتاب.

إذن، المشكلة ليست في الأماكن ولا في غير الأماكن، إنَّما المشكلة في الفعل نفسه، والفعل نفسه يتعدى بنفسه، يتعدى للدار، وللبيت، وللغيط، ولعبد الله، ولزيد، إذن لا مشكلةَ في أن تقول أي شيء.

وإذا اعتبرنا تعدي الفعل بنفسه، أو تعديه بواسطة حرف الجر مرة كما قال الجرمي بنفسه، ومرة يتعدى بحرف الجر- إذن فكل أسلوب صحيح، وهذا مما لم يقل به سيبويه، ولم يقل به أحد من السادة العلماء.

الاتساع في الظروف:

يقول سيبويه في باب التوسع في الأساليب التي تتفرع على البدل. ومن شواهده: قول جرير من الطويل:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قد لمتنا يا أم غيلان في السُّرى | \* |  ونمتِ وما ليل المطي بنائم |

الشاهد فيه -وفق ما قاله سيبويه: أنه كأنه جعل الليل بعض الاسم، ما معنى: جعل الليل بعضَ الاسم، أو جعل الليل هو الاسم، الليل: ظرف، والظروف يُتوسع فيه، وما كان الظرف ظرفًا إلا لأن حدثًا حدث فيه، والحدث له محدث؛ فإن ذلك في أوائل دروس التوحيد، تقول العلماء: إن كل حادث لا بد له من محدث أحدثه، وهذا الكون حادث، والذي أحدثه هو الله  إذن الليل والنهار ظروف أو من الظروف، فالذي يُوصف والذي يسند إليه ولا يلتبس ذلك عليك بالظروف المتصرفة التي تخرج عن الظرفية إلى الفعلية والابتداء، وغير ذلك، فهذا أمر تفسيره إعراب، أقرب منه تفسيره معنى؛ لأن المعنى هنا الذي يذكره سيبويه، والذي أريدك أن تهتم به إنَّما هو من المعاني الكبيرة، أنك تجعل الظرفَ بعضَ الاسم.

نوضح فنقول: إنَّ الليل والنهار ونحوهما ظروف، وما كانت الظروف ظروفًا إلا لأن فيها أحداثًا، والأحداث لها مَنْ أحدثها، ومن أحدثها هو الذي يُوصف بالحركة، بالصيام، بالذكر، بالصلاة، بالقيام، بالحياة؛ أما الظرف فالذي يعنينا ما بداخله، لكن جريرًا وغيرَه في نحو قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قد لمتنا يا أم غيلان في السرى | \* | ونمتِ وما ليل المطي بنائم |

"ليل" مبتدأ، و"المطي" مضاف إليه، وقد دخلت الباء في الخبر؛ لأن "ما" نافية، فيدخل الخبر الباء، كما تدخل الباء في خبر ليس: {ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ} [الزُّمَر: 36] الليل إذن وُصف بأنه ليس بنائم، والليل لا يوصف بأنه نائم، ولا بأنه ليس بنائم، وإنما يوصف الذي يعيش الليل على نوم أو يعيشه على سرى.

كذلك وصف النهار بالصائم، وهذه حركة، نحن نسميها "حركة اللغة" وهي تفاعلاتها، حيث إن هناك علاقة بين الإنسان وبين الظرف إذا قلت كما قال سيبويه، سيبويه ذكر عبارة مهمة في هذا، ماذا قال؟ قال: هو -أي: زيد، أو عمرو، أو أي إنسان- نهاره صائم وليله قائم، أيوصف النهار بأنه صائم، أم يوصف الرجل بأنه صائم بالنهار؟ تعلمون أن النهار هو محل الصيام، لكن الليل: {ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ} [البقرة: 187] إلى غير ذلك، إذن أنت تحفظ أن الصيام إنَّما هو للمكلف، والنهار ليس مكلفًا بالصيام.

هذا التفاعل في اللغة بين الظرف الذي هو ظرف للحدث، وبين من قام بالحدث، وهو توسع، يعني: المفروض ألا يوصف الليل بصيام، وألا يوصف النهار بصيام، وألا يوصف الليل بقيام، لكنهم وصفوا الزمان -كما قال سيبويه: توسعًا.

ومن شواهده ما لم ينسبه ونسبه المبرد إلى رجل من أهل البحرين من اللصوص، وهو من البسيط، يقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| أما النهار ففي قيد وسلسلة | \* | والليل في قعر منحوت من الساج |

يقول سيبويه: فكأنه جعل النهار في قَيد، وجعل الليل في بطن منحوت، أو جعله الاسمَ، أو جعله بعضه؛ الشاعر يصف سجينًا يقيد بالنهار، ويغل في سلسلة، ويوضع بالليل في بطن محبس منحوت من الساج -أي: محفور من الساج، وهو شجر من شجر الهند- إذن الشاعر يصف في الحقيقة سجينًا، السجين هو الذي يقيد بالنهار، وهو الذي يُغل في سلسلة، ويوضع في سجن منحوت من خشب الساج -وبالمناسبة ذكر السهيلي رحمه الله في (الروض) أن رسول الله  كان عنده سَرير من الساج، فانظر، كيف عبر عن الزمان وأراد الإنسان، ومعنى هذا: أن الشاعر أسند إلى النهار القيد، وأسند إلى الليل الحبس، هو يريد نفسه، أو يريد أن يعبر عن أسيره، ولكنه آثر أن ينسب إلى زمان، ألا ترى إلى قوله:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كلوا في بطن بطنكم وتعفوا | \* | فإن زمانكم زمن خميص |

الزمان خميص، فما بالك بالإنسان الذي يعيشه؟! الزمان بخيل، فما بالك بالناس الذين يعيشون فيه؟! نهار السجين في قيد، فكأنه لا يجد من النهار -الذي يتسع للناس- مجالًا رحبًا ليس فيه قيد، ولا يجد من الليل -الذي هو يدرك الخلاء، ويغشاه، ويظلهم بسكونه، ويسترهم بظلمته- فسحة لحركة، ولا فسحة من أمل.

يعني: سيبويه يتفيأُ الآن ظلال النحو، يقول لنا: أما النهار ففي قيد، هذا ليس على قبيل البدل، وليس على قبيل الفاعلية، وإنما هذا على باب التوسع، في أن هناك أساليب تفرعت عن البدل، فوُصف الزمان من باب التوسع، وحذف حرف الجر من الأماكن، وهذه هي لغة العرب وهذا هو تدريس النحو في ضوء الأساليب، أما النهار ففي قيد، عبر بالنهار وأراد السجين؛ ليبين لنا أن السجين إذا كان نهاره في قيد، فهل تظن أنه هو سيكون حرًّا طليقًا نهاري في قيد، وليلي في سجن، وأنا ما دمت داخل النهار، وما دمت داخل الليل، كما قال النابغة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فَإِنَّكَ كَاللَيلِ الَّذي هُوَ مُدرِكي | \* | وَإِن خِلتُ أَنَّ المُنتَأى عَنكَ واسِعُ |

الربط بين الأساليب:

ويقول سيبويه رابطًا بين أصل الباء -وهو البدل- وبين ما تعرف عنه من أساليب: وإن شئت قلتَ: ضرب عبد الله ظهرُه، ومطر قومُك سهلُهم، على قولك: رأيتُ القومَ أكثرهم.

يعني سيبويه بهذه العبارة: أن في اللغة اتساعًا، وأنك تقول: ضرب عبد الله ظهرُه، برفع ظهره عن البدل، ثم يربط بين ما ذكره الآن وما ذكره في صدر الباب بالمثال الذي كاد يكون يصح دخول أن على خبر كان كما ورد في الحديث: ((كادت الحاجة أن تكون كفرًا)) يقول: رأيت القوم أكثرَهم، يكاد هذا المثل يكون علمًا على الأمثلة في باب البدل، على قولك -يعني: على نحو قولك-: رأيتُ القومَ أكثرهم، ورأيت عمرًا شخصه رأى: فعل ماض، والتاء: فاعل، وعمرًا: مفعول به منصوب، وشخصه: بدل منصوب.

إذن، ما مراد سيبويه من قوله: وإن شئتَ قلتَ: ضرب عبد الله ظهرُه، على قولك: رأيت القوم أكثرهم؟ المراد أن إعرابه كإعرابه، وهذه من آيات الذكاء عند سيبويه، لأننا الآن نستطيع أن نضع عنوانَ تطبيقاتنا حول الأساليب التي تفرعت عن البدل، وأن نسمي كل أسلوب بما يناسبه، نستطيع أن نقول مثلًا: إن هذا من باب الإسناد إلى الزمان توسعًا، هذا من باب الحذف والإيصال، هذا من باب الأمثال التي لا تغير، إذن نستطيع أن نضع عنوانًا لكل ما يتفرع من أساليب يذكرها سيبويه، لكن هذا الأمر أيسير هكذا دون ربط بالبدل، بمعنى: أن البدل هو الأصل الأصيل، ما يتفرع عن البدل ليس فرعًا إنَّما هو أصلًا في بابه، وجاءه هنا بالحمل عليه لأدنى ملابسة إما من قبيل الاستطراد أو من قبيل غيره، لكنه يعود؛ لأن موضوعه في رأسه، ولأن مِداده من قلبه.

وإن شئت قلتَ: ضرب عبد الله ظهرُه، ومطر قومك سهلُهم؛ مطر: ماض مبني للمجهول، وقومك: نائب فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، وسهلُهم: بدل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، يقول سيبويه: على قولك: رأيت القوم أكثرهم، ورأيت عمرًا شخصه، معنى ذلك: أن إعرابه كإعرابه، يعني: على البدلية، كأن سيبويه قد توقف وقال لك: أتذكر الموضوع الأصلي، بعد أن قال: "لقد لمتنا يا أم غيلان" وبعد أن قال: نهاره صائم وليله قائم، عاد، فقال: وإن شئتَ قلتَ: ضرب عبدُ الله ظهرُه، ومطر قومُك سهلُهم، على قولك: رأيت القومَ أكثرَهم، ورأيت عمرًا شخصَه، أي: على البلد. ثم يعود سيبويه فيقول كما قال -أي: الشاعر- وهو من الكامل:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فكأنه لهق السراة كأنه | \* | ما حاجبيه معين بسواد |

متفاعل، الضرب مقطوع.

"اللهق" من المعاني اللغوية في البيت: الأبيض، و"السراة": أعلى الظهر، و"المعين": الثور الذي بين عينيه سواد، والشاعر يصف ثورًا وحشيًّا، شبه به بعيره في حدته ونشاطه، كأنه- أي: بعيري أنا- مثل هذا الثور الأبيض، أعلى ظهره، فكأنه حاجبيه معين بسواد، يعني: كأنه حاجبيه معين بسواد.

نلاحظ أن سيبويه نبهنا هنا وبين لنا أن قوله: "كأن حاجبيه" أبدل "حاجبيه" من الهاء التي في "كأنه" يعني: كأن حاجبيه معين بسواد، و"ما" زائدة، وأنا أحاول أن أقف مليًّا عند هذا البيت؛ لأنه من شواهد الرضي، ربما يحدث اللبس، ما نوع "ما" في قوله: "كأنه ما حاجبيه"؟ لو كانت نافية من أول وهلة تستطيع أن تقف على حقيقتها، بأنه لن يقول ما حاجبيه، وإنَّما يقول ما حاجباه، هكذا، إنَّما قال: ما حاجبيه، فلا بد في حاجبيه أن تكون إما منصوبة بالياء، وإما مجرورة بالياء؛ لأنه مثنى، حذفت نونه للإضافة، والإضافة إلى الهاء، فكأن حذف النون بسبب الإضافة هذه، و"ما" زائدة.

فإذن، إذا كان بدلًا من الهاء في "كأنه" كما قال سيبويه، يكون بدلًا منصوبًا؛ لأن الهاء في "كأنه" اسم لكأن، و"كأن" حرف تشبيه ونصب، وهي من أخوات إنَّ، وأخواتها تنصب الاسم وترفع الخبر.

الاستطراد في الاستشهاد:

ويستطرد سيبويه في ذكر الشواهد:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| مَلَكَ الخَوَرنَقَ والسَدِيرَ ودانَهُ | \* | ما بَينَ حِميَرَ أَهلِها وَأُوالِ |

الشاهد فيه: إبدال أهلها من حمير، قال سيبويه: يريد ما بين أهل حمير، فأبدل الأهل من حمير، وكأنه يذكرنا بما قاله من التَّرْكِ بين اللذين كَانَا أولهما سببًا في الآخر، أو أصلًا للآخر، قابلت أكثر قومك، ثم عَدَلَ عنه فقال: قابلت قومَك أكثرَهم، ومعناه أنه قال: ما بين أهل حمير، ثم عاد فقال: ولماذا أقول هذا؟ أقول: ما بين حمير أهلها، فأبدل أهلها من حمير، هذا هو الذي ذكره سيبويه.

الحق أن لدينا -مما بقي- نستطيع أن نطلق عُنوانًا لتطبيق هو "قضية ومصطلح".

من مصطلحات سيبويه: أنه يعبر عن الحال بالتمييز، سبق أن قلتُ لكم أنه يعبر بالحرف عن الاسم والفعل والحرف الذي هو قسيم الفعل وقسيم الاسم كما قلت لك في ضوء قول ابن مالك:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| كلامنا لفظ مفيد كاستقم | \* | واسم وفعل ثم حرف الكلم |

قال في قول الراجز:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| مشق الهواجر لحمهن مع السرى | \* | حتى ذهبن كلاكلًا وصُدورا |

قال سيبويه: فإنما هو على قوله: ذهب قُدُمًا، وذهب أُخَرَ، أي: على الحال، معنى هذا: أنه يرى أن قول جرير وهو من الكامل:

"كلاكلًا": حال هي ليست حالًا، وإنَّما هي تمييز، لكن سيبويه قال: على الحال، قد تنبه إلى ذلك وهو أولى بالتنبه الشيخ عبد السلام هارون، وقال سيبويه: وقال عمرو بن عمَّار النهدي، وهو من الطويل:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| طويل متلي العنق أشرف كاهلًا | \* | أشق رحيب الجوف معتدل الجرم |

البيت من الطويل، وأوله: "طويل متلي العنق": المتل: العنق الطويل، "أشرف كاهلًا": الكاهل: فروع الكتفين، "أشق" الأشق: الطويل، كأنه طويل الجانب، "رحيب الجوف" يعني: واسع الصدر، "معتدل الجِرم": الجرم: هو الجسم، هو يصفه بالطول والاستقامة والاعتدال، وموضع الشاهد: "أشرف كاهلًا: ولعل ذلك يذكرك بقوله تعالى: {ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ} [الكهف: 34] يعني: أن "كاهلًا" منصوب، كما نصب "كلاكلًا" في قول جرير: "كلاكلًا وصدورًا" منصوب على التمييز بعد أفعل التفضيل.

يقول سيبويه: كأنه قال: ذهب صُعدًا، فإنما خبَّر -يعني: أخبر- أن الذهاب كان على هذه الحال، ومعروف أن "كاهلًا" منصوب على التمييز.

ثم يقول سيبويه: ومثله قول رجل من عمان:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا أكلتُ سمكًا وفرضًا | \* | ذهبت طولًا وذهبت عرضًا |

الشاهد: نصب طولًا وعرضًا على التمييز، فالمعنى ذهب طولي وذهب عرضي، أي: أنه من التمييز المحول عن الفاعل: {ﭥ ﭦ ﭧ} [مريم: 4] أي: اشتعل شيب رأسي في قول الله تعالى من سورة مريم: {ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ} [مريم: 3، 4]

"شيبًا": تمييز، وهو محول عن الفاعل، ومعنى ذلك أن التقدير فيه: اشتعل شيب رأسي، أو شيب الرأس مني - وسوف نراها في تحقيق المسألة في إنابة الألف واللام عن المضاف إليه- حيث إن التقدير: واشتعل رأسي شيبًا، إلى أن قال: {ﭢ ﭣ ﭤ} اشتعل الرأس مني، أو اشتعل رأسي.

وتحفظون المحول من التمييز عن المفعول، في نحو قول الله تبارك وتعالى: {ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ} [القمر: 10] {ﭻ ﭼ ﭽ} أصلها: وفجرنا عيون الأرض، حين تعرب في غير وقف حول الشاهد: فجرنا عيون الأرض في غير القرآن الكريم، تقول: فجر: فعل ماض مبني على الفتح المقدر؛ وذلك كراهية اجتماع أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة، ونا الفاعلين: فاعل، وعيونًا: مفعول به منصوب، فجرنا عيون الأرض، والأرض: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة، فَلَمَّا عدلت عن هذا التركيب كما عدل النظم الجليل، وقرأته: {ﭻ ﭼ ﭽ} كان لذلك من الأسرار ما لا يخفى عليك، نعم.

ما هذا السر الذي لا أحبه يخفى عليك، أي: فَرْقٍ بين قول الله تعالى: {ﭥ ﭦ ﭧ} واشتعل شيب الرأس؟ وأي فرق بين قوله تعالى: فجرنا عيونَ الأرض، {ﭥ ﭦ ﭧ} لا شك أنك ربما تختار النظم القرآني على أنه في قمة البلاغة، لكن العلم يقتضي أن تذكر السبب، ما الذي جعل قول الله تعالى: {ﭥ ﭦ ﭧ} أفضل من قولنا في غير القرآن الكريم: اشتعل شيب الرأس؟ العلماء يقولون -من قديم-: إن قوله تعالى: {ﭥ ﭦ ﭧ} يدل على أنه لم يعد في رأسه شعرة واحدة سوداء، يقولون: اشتعل البيت نارًا يعني: لم يعد فيه شيء لم يشتعل، أما إذا قلتَ: اشتعلت النار في البيت، فقد تكون اشتعلت في حجرة من حجرات البيت، وقد تكون اشتعلت في جانب، وقد تكون اشتعلت في البيت كله إلا قليلًا، لكن إذا قلتَ: اشتعل البيت نارًا، معناه: أن البيت صار قطعة من نار، فلا أملَ في أن تجد شيئًا أخضرًا، ولا في شيء نجا من النار، كذلك الحال حين تقول: فجرنا عيون الأرض، معنى ذلك: أن الأرض فيها عيون، وفيها أماكن ليست بعيون، وأن الله تعالى فجر عيون الأرض، ولكنه ترك المباني، وترك الجبال، وترك المدارس والجامعات، لكن إذا قال ربنا: {ﭻ ﭼ ﭽ} معناه: أن الأرض كلها صارت عيونًا، فأنزل الله المطر، وفجر الأرض كلها عيونًا: {ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ} [القمر: 12] هذا هو الطوفان العظيم، وهذا هو الابتلاء العظيم الذي نجَّا الله نوحًا ومَن معه من المؤمنين.

انظر إلى هذا التحويل، إلى هذا الأسلوب إلى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، الأمر الذي يجعل سيبويه يضع ذلك كله في كتابه، ويحرص عليه كل هذا الحرص.

قال: ومثله قول رجل من عمان:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إذا أكلت سمكًا وفرضًا | \* | ذهبت طولًا وذهبت عرضًا |

والشاهد نصب "طولًا وعرضًا" على التمييز، قال سيبويه: وليس هذا مثل قول عامر بن الطفيل:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| فلأبغينكم قنًا وعوارضًا | \* | ولأقبلن الخيل لابة ضرغد |

الشاهد في نصب "قنًا وعوارضًا" بنزع الخافض الذي بدأ به سيبويه حين نقل إلينا قول الخليل: مطرنا الزرعَ والضرعَ.

إذن، ما الفرق الذي ذكره سيبويه بين هذا الذي قاله الشاعر من الكامل: "ولأبغينكم قنًا وعوارضًا" وما الذي يختلف عن غيره؟ الذي يختلف أنه قال: ذهبت طولًا وذهبت عرضًا على التمييز الذي يطلق عليه سيبويه الحال، هذه مسألة، لكنه حين قال: "قنًا وعوارضًا" كأنه قال: فلأبغينكم في قنٍ وفي عوارض، أينما تذهبون ذهبت وراءكم، وأخذتكم، وسقت الخيل، وغلبتكم، وقهرتكم، وانتصرت عليكم.

قال سيبويه في آخر الباب: لأن "قنًا وعوارضًا" مكانان، وقد بدأ بالمكان؛ ما سبب قوله: مكانان؛ قال سيبويه ذلك؛ لينبهنا إلى أن من الأساليب العربية ما يأتي على النصب على التمييز الذي يطلق عليه الحال، ولكن يختلف الحال باختلاف المقال، فإذا جاء الشاعر وذكر مكانًا، فإن المكان لا يكون تمييزًا، وإنَّما يكون منصوبًا بنزع الخافض، وقضية النصب بنزع الخافض من قضايا التوسع اللغوي، وقد جعلها سيبويه محصورة فيما قال من أمثلة ذكرها عن العرب ومنها: مطرنا السهلَ والجبلَ، ومنها ما حكاه عن الخليل، مطرنا الزرعَ والضرعَ، فَلَمَّا ذكر ذلك كله، قال: واحذر، أن تحذف حرف الجر إلا أن تقول العرب.

# المراجع والمصادر

1. سيبويه، عمرو بن عثمان سيبويه (الكتاب) ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، 1991م
2. المبرد، محمد بن يزيد المبرد (المقتضب)، دار الكتب العلمية، 2000م
3. بن مالك، محمد بن عبد الله بن مالك (شرح التسهيل)، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، القاهرة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1990م
4. القفطي، جمال الدين علي بن يوسف القفطي (أنباه الرواة على أنباه النحاة)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، 1950م
5. بن كثير، إسماعيل بن كثير (طبقات الشافعية)، دار المدار الإسلامي للتوزيع، 2003م
6. الحنبلي، ابن العماد عبد الحي بن أحمد الحنبلي (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، سوريا، دار ابن كثير، 1986م
7. الأنباري، عبد الرحمن بن محمد الأنباري (الإنصاف في مسائل الخلاف)، دار الكتب العلمية، 2007م
8. الأنباري، أبو البركات بن الأنباري (البيان في غريب إعراب القرآن)، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، 2002م
9. الأنصاري، جمال الدين بن هشام الأنصاري (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، 2001م
10. الأشموني، علي بن محمد الأشموني (شرح الأشموني على ألفية ابن مالك)، دار الكتب العلمية، 1998م
11. بن جني، ابي الفتح عثمان بن جني (الخصائص)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 2006م
12. بن مالك، محمد بن عبد الله بن مالك (شرح الكافية الشافية)، دار الكتب العلمية، 2000م
13. الشافعي، محمد بن علي الصبان الشافعي (حاشية الصبان على شرح الأشموني)، دار الكتب العلمية، 1997م
14. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1964م
15. الطنطاوي، محمد الطنطاوي (نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م
16. الأستراباذي، محمد بن الحسن الرضي الأستراباذي (شرح الرضي على الكافية)، تحقيق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس، 1978م
17. بن يعيش، يعيش بن علي بن أبي يسار بن يعيش (شرح المفصل)، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، 1996م.
18. بن منظور، محمد بن مكرم بن منظور (لسان العرب)، بيروت، دار صادر، 1970م
19. العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (اللباب في علل البناء والإعراب)، دار الفكر المعاصر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م
20. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (همع الهوامع في شرح جمع الجوامع)، دار الكتب العلمية، 1997م
21. الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف بن عليّ بن حيان الأندلسي (تفسير البحر المحيط)، تحقيق: عادل أحمد وعلي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، 1413هـ